

شوقي ضيف

الفصل الثاني: المناهج

- من القديم إلى الحديث

- تحدث المؤلف في البداية عن أول منهج وضع للبحث العلمي؛ وهو منهج أرسطو الذي أسماه باسم المنطق.

- اهتم العرب بمنطق أرسطو منذ ابن المقفع حيث ترجموه وشرحوه واستعملوه في كثير من المصنفات وضرب -المؤلف- أمثلة حول توظيف منهج أرسطو في المؤلفات العربية المختلفة كعلم الفقه وأصوله؛ (حيث يتحدث الفقهاء عن الحدود والتعاريف والكلبي والجزئي والعام والخاص والقياس...) وعلوم اللغة والنحو؛ (حيث نجد النحاة منذ الخليل يتوسعون في الحديث عن القياس كما يتحدثون أيضا عن العلل التي يقوم عليها القياس...)

ثم أعطى مثالا عن أكثر المؤلفات العربية تأثرا بمنهج أرسطو وهو مؤلف لابن وهب يحمل عنوان "البرهان في وجوه البيان" حيث خصص فيه فصل للقياس، كما تحدث عن السفسطة والجدل والتناقض... وهو في كل ذلك متأثر بالمنطق الأرسطي مع ما أضاف إليه من بحوث المتكلمين والفقهاء ومقالات الفلاسفة الإسلاميين وأفكارهم

- استعان العرب القدماء كثيرا بمنطق أرسطو في بحوثهم وأضافوا عليه وطوروا فلم يقفوا عند حدود ما جاء به فقط على غرار الغربيين في العصور الوسطى والذين اكتفوا بما جاء به أرسطو فقط.

- وجهت عدة انتقادات للمنهج الأرسطي والتي بدأت ربما مع الانجليزي روجر بيكون الذي رفض المنطق الأرسطي القائل باعتماد العلم على الطريقة القياسية وحسب رأيه يجب أن يعتمد العلم قبل كل شيء على التجربة/ ثم الانجليزي فرنسيس بيكون مؤسس المنطق الحديث الذي يجمع بين التجربة وبين الطريقة القياسية ومعنى أدق يجمع بين الاستقراء القائم على التجارب وبين القياس العقلي المحكم./ وبعده يأتي الفيلسوف

الفرنسي ديكارت الذي هاجم بدوره المنطق الأرسطي لأنه يفترض في مقدمات أقيسته أنها يقينية لا يرقى إليها الشك/ وبعد بيبكون وديكارت جاء مفكرون وفلاسفة مختلفون اتفقوا على أن منطق أرسطو انتهى زمنه، وينبغي أن يحل محله المنهج العلمي الذي يعتمد على دراسة الظواهر ورصدها مع الجمع بين التفكير النظري و بين الملاحظة والتجربة كلما سنحت الفرصة لاستخدامها.

- مع العلوم الطبيعية

- أثرت نهضة العلوم الطبيعية في القرن الماضي على البحوث الفلسفية والأدبية؛ حيث أنكرت طائفة من النقاد ومؤرخي الأدب في تلك الفترة التذوق الشخصي (التذوق الفردي)، وحاولوا وضع قوانين ثابتة للأدب تشابه ثبات قوانين العلوم الطبيعية (قوانين تطبق على كل الأدباء كما تطبق قوانين الطبيعة على كل العناصر وكل الجزئيات وكل الكائنات). فالأديب ليس له كيان مستقل بذاته؛ لأن كل آثاره وأعماله هي نتيجة أو ثمرة قوانين حتمية تشكله وتكيفه حسب مشيئتها.
- رأى سانت بيف بأن الأدباء فصائل مشابهة لفصائل النباتات والحيوانات فصائل تتشكل حسب ما يقع عليها من مؤثرات خارجية ؛ أي دراسة كل ما يحيط بالأديب للتمييز فيه بين الفردي الذاتي والجماعي المشترك بينه وبين من على شاكلته من أدباء بيئته وعصره، بحيث ينحى عنه كل ما يتصل بفرديته وذاتيته .
- فكرة نمو مدارس أدبية يعود الفضل فيها إلى توزيع سانت بيف الأدباء إلى فصائل لأن المدرسة في واقعها مجموعة من الخصائص الأدبية تشترك فيها طائفة أو طوائف من الأدباء.
- رأى تلميذ سانت بيف / تين taine بأن هناك ثلاث قوانين أدبية جبرية هي (الجنس/ البيئة أو المكان/ العصر أو الزمان) وتين بذلك ينكر فردية الأديب وأصالته إنكارا تاما فليس في الأديب ولا في أدبه إلا قوانينه الجبرية الثلاثة.
- حاول برونيتير brunetiere تجسيد نظرية داروين على الأدب وأنواعه حيث ألف كتاب يحمل عنوان "تطور الأنواع الأدبية" وحاول فيه إثبات أن أنواع الأدب شعرا ونثرا

تنقسم إلى فصائل وأن كل فصيلة في الأدب مثلها مثل الفصائل في الكائنات الحية عند دارون.

- مع الدراسات الاجتماعية

- خصص المؤلف هذا العنصر للحديث عن المجتمع وعلاقته بالأدب والأدباء؛ حيث تطرق بشيء من التفصيل إلى ذكر نماذج وأمثلة قديمة وحديثة غربية وعربية عن الجانب الاجتماعي وثيق الصلة بالأدب.

- مع البحوث النفسية

- ربط كولريدج (كتابه سيرة أدبية) بين الحلم والشعر وتنبه في وضوح إلى نظرية اللاوعي أو اللاشعور حين تحدث عن تأملات غير منضبطة عند الشعراء تجتاز بهم حدود العقل الواعي. وهو بذلك يعد إرهابا قويا للدراسات النفسية الحديثة.
- التي بدأت مع فرويد وما أخذ يكتبه عن طبيعة الفن والفنان وعلاقة الشاعر بأحلام اليقظة؛ وحاول إثبات فكرة أن الإبداع في الفن شعرا وغير شعر هو تنفيس عن رغبات جنسية مكبوتة في اللاشعور كتبت منذ الطفولة ؛ فتحدث المؤلف بالتفصيل عن دراسة فرويد لعقدة أوديب عند كل من الرسام الإيطالي ليوناردو دافينشي والأديب الروسي دوستويفسكي.

- مع الفلسفة الجمالية

- تحدث المؤلف في هذه الجزئية عن فلسفة الجمال التي يكمن موضوعها في الجمال الفني الذاتي الذي يتكون من شيئين: من الطبيعة ومن الفنان (ما يضيفه الفنان على موضوعه بحيث يثير فينا عواطف ومشاعر مختلفة وقد تكون حقيقة من حقائق الطبيعة قبيحة أو غير جميلة ولكنها تستحيل جميلة عند الفنان الذي أسبغ عليها من ذاته).
- فلاسفة الجمال حين يبحثون فيه لا يبحثون بحثا جزئيا في مفرداته وآثاره ولا في قيمتها من حيث الجودة والرداءة إنما يبحثون في الفنون عامة بحثا كلية.
- هذا النوع من الدراسات يعد حديثا فمصطلح الفلسفة الجمالية (الاستيطيقا) استخدم أول مرة في النصف الثاني من القرن الثامن عشر من طرف الألماني بومجارتن؛ لكن ذلك

لا يعني عدم وجود أفكار حول موضوع الجمال على الإطلاق (أرسطو وأفلاطون الإلهام الفني وصورة الجمال المطلق/ واللذة التي نستقبلها في الفنون)

- بعد بوجارتن شاع المصطلح لدى العديد من الفلاسفة وكان موضوعا لمباحثهم من أمثال: كانت وهيغل وشوبنهاور، اسبنسر، نيتشه، كروتشيه، شارل لالو وسويو....
- يتحدث فلاسفة الجمال كثيرا عن القيم الجمالية وهل هي خارجية في الفنون الجميلة نفسها أو هي داخلية لوجود لها في فن ولا في أثر فني، إنما وجودها في ذهن المتقبل المتمتع بالفن، أو هي شيء مشترك بين الفن ومتلقيه.
- تحدث أيضا عن ربط الفن بالمجتمع وعن الفن للفن (الفن لا غاية له وراء الغاية الجمالية)

- مع الدراسات الذاتية والموضوعية

- تحدث المؤلف في هذا الجزء عن الثورة على المناهج الأدبية السابقة وانتقادها لأن حسب رأي هذه الفئة البحث المستمد من قوانين العلوم الطبيعية، والبحث النفسي ينقلنا من الآثار الأدبية إلى أصحابها والبحث الاجتماعي ينقلنا إلى المجتمع وصلة المؤلف به، ويدخلنا البحث الجمالي إلى عالم من الميتافيزيقا لحدود له فالأولى هو تأمل الآثار الأدبية وتذوقها وتصوير مدى تأثيرها في القلوب والعقول (الاعتماد على الذوق والتذوق الشخصي).
- ثم ظهر بعدها اتجاه يعارض الدراسات التأثرية على اعتبار أنها تعوق الدرس الأدبي الصحيح إذ تنقلنا من الأثر الأدبي إلى شخصية الباحث أو الناقد، وأحاسيسه إزاء ما يقرأه وما يثير فيه من رضا وسخط؛ حيث ترى هذه الفئة من الباحثين أن الدراسة الأدبية يجب أن تكون موضوعية بحيث تدرس الأثر الفني وكأنه كائن مستقل له مشخصاته أي تدرس خصائصه دون النظر إلى ما قد يتداخل فيه سواء من شخصية الأديب أو من عوارض خارجية تتصل بشؤون مجتمعه وظروفه.
- وإذا كانت الدراسات التأثرية من شأنها أن تعمق في الباحث الأدبي تذوقاته التأثرية وانطباعاته الذاتية فإن الدراسات الموضوعية من شأنها أن تعمق فيه صلته بالتراث الماضي

بحيث يحس في قوة تيار الأصول الفنية الموروثة وما يرتبط بها من تقاليد، فليس في الأدب ما ينشأ فجأة ولا ما ينشأ تلقائياً، بل الأدب في كل آثاره يضرب بجذور عميقة في الماضي البعيد.

- منهج تكاملي

- تحدث المؤلف في هذه الجزئية بشيء من التفصيل عن أهمية كل منهج من المناهج السابقة (المنهج المستمد من العلوم الطبيعية، المنهج الاجتماعي، البحوث النفسية، الفلسفة الجمالية، الدراسات التأثرية والدراسات الموضوعية...الخ) في البحث الأدبي، ووصل إلى أن الباحث الأدبي الحديث يجب أن يستفيد في عمله بكل المناهج والدراسات السابقة، من منطلق أن منهج واحد لا يكفي لتقديم دراسة متكاملة، لذلك يجب أن يستعين بها جميعاً حتى ينتج بحثاً أدبياً قيماً؛ وتعبير آخر يجب أن يتحول عقل الباحث إلى ما يشبه مرآة تعكس أضواء كل تلك المناهج.